# المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الخامس والتسعين

١ نوفمبر سنة ١٩٣٩ — ١٩ رمضان سنة ١٣٥٨


## الحرب والحضارة

« ان حيوية الحضارة لا تكبت »

عندما شبت نيران الحرب العالمية في سنة ١٩١٤ وانطلقت مدافعها كتب الكاتب الفرنسي المشهور رومان رولان يقول «ان هذه الحرب نزاع دنيء تبدو فيه اوربا المجنونة وهي تسير الى حتفها كهرقل الذي قضى على نفسه بيديه». ونحن اذا تأملنا هذه الحرب المشبوبة الضرام الآن وجدنا أنهُ لا مفرَّ لنا من تذكر كلمة رومان رولان. فكل دولة من الدول المشتركة فيها تنادي بأنها تحارب في سبيل المحافظة على كيانها ولكن يبدو ان العاقبة العامة قد تكون تدميراً عامًّا للمدنية الاوربية مهما تكن الأغراض التي تتجه اليها كل دولة على حدة. وليس من المنتظر ان تنجو الدول المحايدة من نوائبها. ففي يوم ٣ اغسطس سنة ١٩١٤ قال السر ادورد جراي وزير خارجية بريطانيا حينئذٍ: «ونحن اذا خضنا غمار الحرب لم تزد نوائبنا الا قليلاً عما اذا التزمنا الحياد». والغالب ان السر ادورد غالى في القول ولكن من يستطيع أن يزعم أن هنالك دولة نجت من عواقب الحرب الماضية وما جرته في اثرها من القلق والاضطراب؟

واذا اتسع نطاق هذه الحرب، ودامت سنوات فالغالب — في رأي كثيرين — ان يكون الخراب الناجم عنها عظيماً. فالعالم يرتب نفسه وكأنَّ الأنام قد بنيت تحت قدميه، منتظراً الكارثة التي تصهر هذه الانام فتدمر أنفس مقتنياته المادية والروحية. ولا يقتصر تأثير خرابها على هذا الجيل بل يمتد الى الأجيال القادمة مدىً طويلاً، فيكون في ذلك دمار

الحضارة وأنهيار الثقافة البشرية . ويجد قراء المقتطف في باب سير الزمان فصولاً منوعة تتناول وجوهاً شتى من هذه الحرب . ولكن يهمنا في هذا الفصل ان نقف قليلاً عند هذا السؤال الذي يثيره قول رومان رولان — هل تقضي الحرب على الحضارة ؟

ولا بدّ من التسليم باديء بدء بأن ذلك الجانب من حضارتنا الممثل في الآثار الفنية التي لا تقوَّم بمال من مبانٍ وتماثيل وصور وغيرها معرَّض للدمار . وأوربا حافلة بهذه البدائع . ولكن جيوشها تملك كذلك الوفاً من الطائرات . ومهما تكن وسائل الدفاع ضد الطائرات قد بلغت من الاتقان فلا ريب في ان قائد السرب المهاجم المستعد للتضحية ببعض طائراته ورجالها يستطيع ان يبلغ هدفهُ . وفي وسع حملة من هذا القبيل ان تدمّر جامعة أكسفورد او جامعة هيدلبرج فتمحو من سطح الارض بقعة ما أروع جمالها ، ومستودعاً من أنفس مستودعات العلم والفلسفة والادب في تاريخ البشر . وقنبلة واحدة تصيب هدفها تستطيع أن تدمر كنيسة من تلك الكنائس التي تتجلى فيها روائع فن البناء والنقش فيمضي الناس جيلاً بعد جيلاً وهم يتحسرون على ضياعها . وليس في النصف الغربي من اوربا منطقة لا تجد فيها مقرًّا لآيات العبقرية الفنية — في ايطاليا والمانيا وفرنسا وبريطانيا وبلجيكا وغيرها . وقد كنا من أيام نشاهد الصور المتحركة في احدى دور القاهرة فرأينا الرجال يصففون أكياس الرمل خارج المتاحف والكنائس وداخلها بغية صونها من الانهيار ، فانطلقت من صدورنا زفرة حسرة وألم وقلنا لجارنا « ماذا تغني هذه الأكياس في منع هذه القباب الضخمة والملاءات الملونة والتماثيل والنقوش التي لا تزال غضّة على الزمن من الانهيار ، اذا اصابتها قنبلة واحدة من القنابل المتفجرة الضخمة

واذا كان القصد من عبارة « تدمير الحضارة » انتهاء دور من ادوار الحضارة فالتدمير مستطاع بل محتمل . بل يصح أن نقول انهُ لا مفرَّ منهُ . لاننا بلا ريب نواجه عهداً جديداً في الثقافة الانسانية . فالحرب العالمية الاولى جاءت حدًّا لقرنٍ أستتبَّ فيه السلام بوجه عام بعد النزاع الطويل الذي منيت به اوربا في عهد نبوليون ، ونهايةً للتقدم المطرد نحو انتشار الحكم الذاتي الدمقراطي في انحاء الارض ، وكانت مستهلَّ عهد مسحته التراخي الادبي والفوضى السياسية والاضطراب الاقتصادي والاضطهاد الديني والعنصري . ولو قال احدٌ لسكان اوربا في سنة ١٩٠٠ ان هذا هو مصيرهم في سنة ١٩٢٠ لأبوا تصديقه ولوصموهُ بالجهل والتهويل وبأنهُ يوم يشق . فالثورة الفرنسية تلاها عصر « الرشدة » reason والحرب العالمية الاولى تلاها عهد الطيش والتهور unreason ولا مفرَّ من ان تضيف الحرب العالمية الناشبة الآن — اذا طالت — أثاويه ومفازات مظلمة اخرى الى هيكل الفوضى

هذان النضالان العظيمان ، الحرب العالمية الاولى والحرب العالمية الثانية ، قد يضعهما

مؤرخو المستقبل بقولهم انهما بداءة حرب الثلاثين السنة في القرن العشرين وختامها — لان القتال لم يقف يوماً واحداً منذ نشبت الحرب الاولى سنة ١٩١٤ . ولابدَّ ان يفرضا على المؤرخين صفحة جديدة بل فتح فصل جديد في كتاب تاريخهم وحضارتهم . انهما يعنيان نهاية حضارة وانبثاق اخرى . ويلوح ان هذه الحضارة الثانية التي نشهد انبثاقها أشدُّ قتاماً واذل اصولاً من الحضارة التي بدأت تخلفها

ولكن لا يتعين علينا ان نسلّم بأن القول «بتدمير الحضارة» يجب ان يؤخذ على علاَّته. فالحضارة نباتٌ قويٌّ متعدّد الجذور متشعب الفروع ، لا يحتمل اقتلاع جميع جذوره وسقوط كل ورقة وغصن مرَّة واحدة مهما تكن الكارثة التي يصاب بها . واذا كانت الحضارة قد عاشت بعد تدمير أثينا واجتياح البرابرة روما وقتام القرون المتوسطة والنزاعات الدينية والملكية في العصور التي تلتها ، فانها ولا ريب تستطيع ان تعيش بعد ان تمنى بحربين عالميتين

الانسان وريث جميع العصور السابقة . ومن المتعذر ان تدمر هذا الارث ، لأنهُ منتشر في كل مكان . فالافكار قد أزهرت على كل ساحل . والمكتبات والمتاحف والمجموعات العلمية والفنية قد أُنشئت في كل أرض . والذكاء الانساني ينتشر بالمطبعة وأسباب المخاطبات على اختلافها حتى ليستحيل على أحدٍ ان يمنع انتقالهُ من أرض وانغراسهُ في أخرى . ولو حرقت طائفة من المكتبات التي من قبيل مكتبة لوفان لما خسر العالم الاَّ قطرة من بحر الكتب والمؤلفات المخزونة في جميع معاهد الارض . ولو وقف أميركي امام كنيسة مدمَّرة من كنائس فرنسا لما شغل نفسهُ برسم انقاضها بل لقد تتملكه النزعة الى ترميمها أو لتشييد صرح جديد فخم مكانها ولاستطاع أن يأتي من وراء المحيطات بالمواد والمبادىء اللازمة لإنارة ذلك المصباح العظيم الخافت الضوء او المنطفىء بفعل الحرب — مصباح الحضارة الفرنسية المجيدة

فالخطر الذي تتعرَّض لهُ الحضارة ليس خطر تدميرها الكلي وانهيارها ولكنهُ خطر اصابتها بالكساح أجيالاً متعددة من جرَّاء الحرب . لانهُ اذا طالت هذه الحرب ، فالغالب ان تكون نهايتها باعثاً على استهلال عصر حديديٍّ ماديٍّ في حياتنا . لان الحرب تدمرها أسباب الثقافة — والعبقرية الانسانية في طليعتها — لابدَّ ان تقسر الانسان على الارتداد الى نمط مادي من الحياة ، فيعيش وهو أقرب الى الجذور منهُ الى الفروع والافنان . فالحرب لا تزال في مستهلها ولكن الدول الكبرى المشتركة فيها أخضعت كل شيء في حياتها لضرورة الحرب والدفاع عن الكيان . فصانع السلاح تزهر ومصانع الافكار تذوي . وما قيمة الادب في نظر هذه الأمم ، وهو الذي كان الصلة الاولى بين الأمم ومبدّد التعصب ، وما قيمة الفلسفة وهي التي كانت الى عهد قريب المأوى الاعلى لتأمية النفس ورفعها ، وما قيمة العلم المحض وهو الذي كان

خادم التقدم — انها غدت جميعاً والأمم تناضل في سبيل الكيان ، ترفاً يمكن اغفالهُ

وستبقى هذه الاشياء من قبيل الترف عندما تنتهي الحرب . لان المشكلات التي ينتظر ان تواجهها الامم حينئذ لن تكون إتاحة آيات الموسيقى والفن والفكر للجماهير بل تعمير ما دمر وتوفير اسباب الفوز بالمأكل والملبس والمأوى . لان البشر سيجدون انهم مضطرون بحكم ما تدمّرهُ الحرب الى العناية باصول المعاش لا بفروعه

ومن غير المحتمل ان تنجو امة ما من هذا الاضطراب . حتى الولايات المتحدة نفسها لن تنجو في اعتقاد آلن نفنز — استاذ التاريخ في جامعة كولومبيا واليه نستند في هذا المقال — منها . فقد كان من اثر الحرب العالمية الاولى في الولايات المتحدة الاميركية تعطيل ما يزيد على عشرة ملايين عامل عن العمل . واعتماد خمسة وعشرين مليوناً على العون الحكومي في الفوز بابسط اسباب العيش . وزيادة الدين الاهلي الى اربعين مليوناً من الدولارات . ونقص موارد كل معهد من معاهد البحث العلمي والتعليم . فنشاط الاجيال القادمة سيرهن في الولايات المتحدة وغيرها للعمل في سبيل التعمير وحده

وليس الانسان في حاجة الى الخيال الوثاب لكي يتصور ما ينتظر ان تحدثهُ الحرب في نسيج المدنية من التمزيق وفي صرحها من الشروخ . فقد قدّر اقتصاديو معهد كارنيجي ان الحرب العالمية الماضية اقتضت خسارة ألوف الملايين من الدولارات . ها هي ذي المدن التي دمرت ومناطق الريف التي اجتيحت والسفن التي غرقت ، يمكن احصاؤها ومعرفة قيمتها المالية . اما عدد الذين قتلوا ودفنوا والذين شوّهوا وعجزوا عن العمل فيعدُّ بالملايين

حتى الخسارة التي منيت بها الشعوب في عقول الذين فقدتهم وتدريبهم الفني يمكن تقديرها . فنحن نعلم ان انكلترا خسرت في الشهور الاولى من الحرب الماضية روبرت بروك الشاعر واميركا الآن سيغر وفرنسا شارل بيجو . ونحن نعلم ان الكاتب هربرت هوريل استطاع ان يملأ اعمدة على اعمدة من مجلة « الاتلنتك منثلي » باسماء العلماء والمفكرين من بريطانيا وفرنسا والمانيا الذين فقدوا في الحرب . وما زلنا نذكر كيف تخاصم رجلان في الطبقة الاولى بين رجال الموسيقى واعني كريسلر وشليبين بانضمام أحدهما الى هذا الفريق والآخر الى الفريق الآخر . ونحن ندرك ان هذا التبذير في المواهب استمرّ اربع سنوات وان زهرة رجولة اوربا وذكائها ذهبت طعمة النيران ، وفي الوسع ان تكتب الكشوف الطويلة تضم جميع هذه الأسماء

ولكننا نحتاج أشدّ الحاجة الى الخيال الوثاب لكي نتصور حضارة المستقبل لولا هذه الخسارة وهذا التبذير . وعلينا ان نقتحم بيز الخيال مستقبلاً مضيئاً — بما سببتهُ الحرب الماضية من التبذير في مواهب النابغين . وما ينتظر ان تسببهُ هذه الحرب — لكي نستطيع أن نتصور

الانتصارات العظيمة في حلبة الاجتماع البشري من جميع نواحيها ، لو طالت الفتنة . ونستطيع ان نمدّ الخيال بعون يسير اذا رجعنا الى التاريخ وتصورنا العواقب التي تبعث على الحزن والهلع التي كانت الانسانية منيت بها لو نشبت حرب كبيرة من قبيل حروب اليوم في الفترة الواقعة بين سنة ١٨٤٠ و١٨٤٥ . اذن لكان من المحتمل ان تفقد انكلترا في تلك الحرب دكنز وثاكري وبروننغ وغلادستن وسبنسر وهكسلي وبسمر . ولا يستبعد ان مصير داروين فيها كان من المحتمل ان يشبه مصير موزلي ، ومصرع تنيسون مصرع روبرت بروك . وان تفقد فرنسا هوجو ودوده وموسيه وسانت بوف ورينان وفلوبير وباستور . والمانيا وروسيا فاجنر وجوجول . وغيرهم كثير

أنستطيع ان نتصور حالة العصر الفكتوري من ناحيتي الأدب والعلم لو ذهب ربع شبانه طعماً لنيران الحرب ، وحتى فرنسا والمانيا في القرن التاسع عشر لو سيق احداثها الى المجزرة ؟

اننا نستطيع ان نتصور فقط ما يحتمل ان تكون خسارة الحضارة بتكرار هذا التدمير ، ولكننا لا نستطيع ان نعلم ولا ان نتكهن . فنحن نعلم ان السر فيليب سدني مات في الثانية والثلاثين وهو يحارب في سنة ١٥٨٦ في البلاد الواطئة ( هولندا وبلجيكا الآن ) ليمدّ الهولنديين بالعون لطرد الاسبان من بلادهم . ومن يدرينا ان بين الانكليز الذين حاربوا في بلجيكا سنة ١٩١٤ ليمدوها بالعون لطرد الالمانيين لم يكن هناك شاب كان كتب له — لو عاش — ان يغدو شكسبيراً آخر ؟ ولا تقتصر الخسارة على الذين يموتون في الميدان ، بل تشمل اولادهم وحفدتهم ، وانت تعلم ما قيمة الوراثة العقلية في تاريخ الحضارة . ولا تقف المصيبة عند حدّ الحقائق التي كان من المحتمل ان يكشفوها فظلت مطوية بفقدهم ، بل تتعداه الى الحقائق التي كانت تولدت من حقائقهم ، والمؤلفات التي كانت تلهَم بمطالعة مؤلفاتهم

ان حيوية الحضارة لا تكبَت ، وستبقى ابداً مولّدة سائرة الى الأمام ، ولا بدّ لها في حينها الموقوت ، من ان تستأنف السير في طريق العلم والفن والأدب نحو آفاق جديدة . ولكن اذا طالت هذه الحرب ، فاستئناف السير قد يتمّ بمواكب من الأمم غير مواكب الماضي . ولا ريب في وقوع كثير من وجوه التغيير والتبديل . وقد يكون بعضها باعثاً على الأسى والفجيعة . ومن المحتمل المرجح ان الأمم التي تقذف بنفسها في وطيس النضال ، او تضطر الى ذلك ، ستجد نفسها عندما تضع الحرب اوزارها مضطرة الى التخلف عن السير في طليعة موكب الحضارة

وقد تجد اوربا نفسها وهي عاجزة عن البقاء في الطليعة وقد تقدمتها أمم العالم الجديد .

ثم هناك خطر عظيم وهو ان يفضي التبذير المسرف في شباب أوربا الى اضعاف السلالة القوقاسية فتعجز في ميدان المنافسة والنضال مع السود والصفر . فالقوة الأوربية قلما تستطيع ان تتحمل النزف العظيم في دمها الذي تقتضيه المجزرة تلو المجزرة ، بغير ان تصاب بالاعياء . وقد تكون

العواقب التي تسفر عنها هذه الجزرة أخطر شأناً وأبعد أثراً مما يخلو للذهن الأوربي ان يتصور

ونحن إذ نقول ما قلناهُ عن الحرب لا ننفي ان الحرب أعظم كارثة تواجهها الحضارة . بل هناك — في رأي الاستاذ نفز — كارثة أعظم وهي ان يسود أوربا طراز من الحكم والاجتماع والثقافة كالطراز الذي أقامهُ جماعة النازي في قلبها . فتوسع المانيا النازية ببسط سيطرتها على أوربا الوسطى وأوربا الشرقية ثم ببسطها على غرب أوربا، أشأم أثراً من تطاحن طويل . فالحرية تموت حينئذٍ في قلب الغرب موتها الآن في برلين وفينا وبراج . وتفرغ الصناعة والتجارة والسياسة والحكم والادب والفن والعلم في قالب واحد . فيفر الكتّاب والعلماء من اوربا حينئذٍ كما فرّ توماس مان من « ارض الظلام » . وعندئذٍ يجلس التجسس والقدع والتعذيب في مجالس الحكم ، ومن يدري فقد يطول جلوسها

ولذلك كان لا بد من وضع حدّ لهذه المصيبة حتى ولو كان الثمن حرباً بنوائبها . ان منابع الفكر والشعور قد تسممت ، وقام في المانيا جيل يحتقر كرعيه: الحق والامانة ويعتقد ان كل كذبة وكل حيلة وكل جناية تحقق غرضاً معيناً ، لها ما يسوّغها . فثقافة دولة من هذا القبيل ، مهما تبالغ في طلائها، سمٌّ زعاف . ولو انتشرت عقيدتها في القوة واستعمالها لقضى انتشارها على الحضارة . فاذا قيل ان ذلك يفضي الى النظام قلنا انهُ نظام الاستبداد وهو أبعد عن الحضارة من نظام التتار والهون . فكل سعي لوضع حدّ لهذا النظام وينطوي على الامل في تدمير نوائبه ، رخيص مهما يكن غالياً

لأن الحرية ركن الحضارة وروحها، حرية النشاط الفردي وحرية الروح. فالدفاع عنها هو دفاع عن الحضارة ، وصونها بما يكفل حمايتها في المستقبل ركن لازم لانشاء ثقافة عالمية سليمة

في وسع الحضارة ان تزهر بعض الزهر وتثمر بعض الثمر حتى في احضان الفاقة والخطر والخراب اذا كانت حرة . ولكنها تذوي وتموت اذا كانت روح الانسان مكبّلة بالاصفاد . ولذلك نقول ان حرب الامم الديمقراطية — على ما في الحرب من خسائر ونوائب — هي حرب في سبيل الحضارة ويجب ان تفوز بعطف وتأييد كل رجل وامرأة يقيمان وزناً للنور والحق . الحضارة تؤثر السلام . ولكنها قد تقتضي من ذويها القتال في سبيلها احياناً . وأشد احبابها ليسوا الذين يترفعون عن النضال بل الذين يكشفون صدورهم للسيوف

ستكتب السطور التالية في كتاب الحضارة بالدم ومتى انكشفت المعركة عن ظفر الحضارة ورايتها فعندئذٍ يجب التفكير في وضع نظام عالمي جديد لتعزيز الحضارة وصونها . والامل معقود على ان تنهض الولايات المتحدة بنصيبها في وضع هذا النظام ، على وجه أتم وأنبل مما فعلت في سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ وبعدها، وان يكون أثرها متكافئاً مع قوتها وثقافتها واهتمامها بمصير البشر